مطبوعات حديثة

ماقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء

« تأليف اسماعيل مظهر طبع في المطبعة المصرية بمصر في ٣٤٢ صفحة »

« بالقطع الوسط »

الاستاذ اسماعيل بك مظهر من الذين ضربوا في الفلسفة بسهم وافر وهو واسع الاطلاع علم بكثير مما صنفه الافرنج في ضروب الفلسفة . وفوق ذلك فهو جاد يستعمل القلم في نقل معلوماته الى العربية فيخدم بذلك ابناءها . ومما نشره اخيراً هذا الكتاب المفيد فجاء في اثني عشر فصلاً وهي « تمهيد ومقدمات ، الرأي المادي ومذهب النشوء ، دارون والماديون ، مذهب النشوء ازاء الدين والآداب ، نظرة عامة في الرد على الدهريين ، اختلاط المقاصد في الرد على الدهريين ، الانقلاب الجنيني واثره في تأييد مذهب النشوء قدم الأنواع وعلاقة الجيولوجيا بمذهب النشوء ، علاقة المتحجرات بمذهب النشوء ، اثبات مذهب النشوء بتعاقب المتحجرات خلال العصور الجيولوجية ، اصل الانسان ازاء مذهب النشوء ومذهب دارون في العصر الحاضر » .

طالعت هذا الكتاب فرأيت ان ألفت نظر المؤلف الفاضل الى الامور الآتية :

اولاً — طعن بالماديين في الصفحات ٤٥ و٤٦ و٤٧ وسفه رأيهم واتهمهم بالالحاد . ولو أنصف لطعن بالملحدين وحدهم ولفرق الفلسفة المادية عن الالحاد لان الاستاذ لا ينكر ان عنوان كتابه قائم على بحث من ابحاث العلوم المادية وان العلوم لم تتقدم الا لما اخذ الانسان يبحث عن النواميس الطبيعية بأسلوب مادي او يقيني تاركاً البحث عن العلل الاولى والماهيات الى ارباب الدين وأصحاب الفلسفة الغيبية . فالفلسفة المادية تقضي بعدم البت في حادث لا يقره العلم ولا يقع تحت الحواس . فاذا اتيتها ببراهين علمية ملموسة صدقتك والا بينت لك وجه الخطأ . فاما اذا رأت نفسها قاصرة عن ان تحيط بحقيقة ما تبديه فسرعان ما تعترف بجهلها و بان العلم لم يدرك بعد حقيقة هذ الحادث . وهنا بيت القصيد اي ان الفلسفة المادية لا تلزم صاحبها بانكار وجود الخالق بل تدعوه الى عدم البت فيما لا يقوم عليه دليل علمي وهو بعد حر بان يعتقد بالخالق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او بالاديان عن طريق المحاكمة العقلية او لا يعتقد . وكثير من الفلاسفة الماديين يعتقدون بالله عاقل في تعليل الكون ومنهم دارون نفسه وليس كل فيلسوف مادي ملحداً ولكن يكثر عدد الفلاسفة الماديين الذين ان سألتهم رأيهم في المبدإ والنهاية والعلة الاولى أجابوك بلا ادري لانها لا تلمسها الحواس بل لانها تخرج عن دائرة أبحاثهم هذا مع اعتراف الجميع بفوائد الدين الاجتماعية والادبية . وكأني بالمؤلف الفاضل اخذ على نفسه معاكسة الدكتور شميل في مذهبه في حقيقة الدين حتى استرسل في آراء فلسفية لا علمية قدر ماتمسك الدكتور في محدودات مادية .

ثانياً . — ذكر في الصفحة ٤٩ الى ٥٣ وظيفة الدين الاجتماعية فبين تأثير الاديان اي « وازع مابعد العقلية في ضبط سلوك الانسان تجاه الجماعة » وقال : « بعدم امكان قيام نظام اجتماعي على اساس الشرائع الوضعية » ويا ليت المؤلف انصف ونحن في القرن العشرين فاعترف بتأثير كثير من الشرائع المادية والمبادئ الاجتماعية غير الدينية في تنظيم حياة الجماعات ومدنيتها ، دون ان يكون في اعترافه ادنى مس للاديان او تنقيص لفوائدها الاجتماعية والادبية .

ومن الغريب انه ختم بحث وظيفة الدين الاجتماعية بقوله : « ذلك هو الدين واثره فهل يجحده بعد الماديون » . فمتى جحد أصحاب الفلسفة المادية الفوائد الاجتماعية العظيمة التي أفادتها الأديان منذ أقدم العصور الى اليوم . وهذا اوغوست كونت نفسه مؤسس الفلسفة المادية قد أطنب في فوائد الدين الاجتماعية اطنابا عده كثيرون اغراقا .

وفي تضاعيف الكتاب جمل كثيرة سفه بها الاستاذ المصنف آراء الماديين لا سيما في بحث الاعتقاد بالله . اما انا فلا يمكنني ان أعلل طعنه واستنتاجاته الا بكونها مقصودة اي انه توخى الطعن لغرض او لاعتقاد لا لحقيقة ملموسة مادياً يقرها العلم او تقرها الفلسفة المادية التي لا ترتكز على الفرضيات البعيدة عن الحس ولا على الجدل والوهم والخيالات الفلسفية . هذا وقد كان بامكانه إثبات وجود العلة الاولى وكونها عاقلة مدبرة بالاستنتاجات العقلية التي مابرح أصحاب الفلسفة الدينية يطرقون أبوابها ، دون ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يطعن بالفلسفة المادية لان هذه الفلسفة لا تخالفه الا بكونها تعترف بجهل الانسان عن إدراك الماهيات بطريقة علمية مادية وهذا ما لا ينكره احد .

ثم ان من يطالع الكتاب ليحار في تبين مذهب المؤلف الفلسفي خصوصاً من حيث الأديان ، فهو بينما تراه يدافع عن الدين كل الدفاع واذا به يسكت عن معظم تعاليمه لانه لا يعتقد على ما يستنتج الا بوجود علة العلل اما اكثر القواعد الدينية الاخرى فهو يضرب صفحاً عنها لاسيما اذا كان العلم المادي لا يقرها (صفحة ٥٣ و ٢٩٥) .

ثالثاً — ذكر « حظ العرب من البحث اليقيني » فعزا اليهم نقائص وهنات كثيرة وكاد يجردهم من كل أثر علمي او ادبي او فلسفي في كل ذلك تمهيداً للرد على الشيخ جمال الدين الافغاني ولدحض ما ورد في رسالته « الرد على الدهريين » .

وهنا ايضاً حاد المؤلف الفاضل بنظري عن جادة الانصاف لانه لو سار في محاكمته على أسلوب يقيني محض لوجب ان يذكر ان العرب لم ينفردوا بأسلوبهم الغيبي (ثم بما يسميه الشك التقليدي) بل كان هذا الاسلوب طابع مدنية من عاشوا معهم ومن درجوا قبلهم ، وانه لا يرجى من شعب عاش في القرون الوسطى ان تكون جميع أبحاثه في مختلف العلوم يقينية باعثة الى إعجاب أساتذة القرن العشرين ، وان العرب حسبهم ان يكونوا في التاريخ حفظة العلوم القديمة وموسعيها على قدر مابلغته طائفة البشر في هاتيك الايام . ولم ادر كيف خص المؤلف العرب وحدهم بالنقائص التي ذكرها مع انه قال في الصفحة الثامنة « زمان انطوى فيه كتاب مدنيتنا العربية تلك المدنية الشرقية البحتة التي ظلت منارة العالم المتمدن وكعبة سياسة الشعوب ومهبط وحي العلم والآداب ومنبع الفلسفة الفياض طوال القرون الوسطى » حقاً انني كدت اتهمه بالشعوبية لو لم أعد الى تلاوة ما أورده في الصفحة الثانية .

رابعاً — أظن ان الذي لا يكون قد درس دروساً اعدادية على الاقل ووقف على آراء العلماء في نواميس النشوء لا يقوى على فهم كثير من أبحاث الكتاب لان المؤلف لم يصنفه وفاقاً للطريقة المدرسية (Classique) فانا ارى انه كان من المفيد بل من اللازم ان يتلافى الاستاذ ذلك فيجعل في اول الكتاب بحثاً موجزاً في تعريف النوع والصنف والرس (العرق) ، وحصول التبدلات (التغايرات) في النبات والحيوان واشكال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه التبدلات وما يدعو الى حصولها ، ثم نظرية الوراثة وأشكالها وما ينتج عنها ، واخيراً الانتخاب الطبيعي فالانتخاب الصنعي وأشكاله وقواعده . ولا مشاحة في ان بحثاً كهذا يجعل فصول الكتاب أقرب منالاً على القارئ لا سيما اذا لم يكن له سابق عهد بهذه الموضوعات .

خامساً . — لم يمن الاستاذ بلغة الكتاب قدر عنايته بمعانيه ولذا جاء فيه من الجمل الركيكة والألفاظ المغلوطة عدد كبير وهذا بعضها :

١ — تراكيب في المنسوب والمنسوب اليه لا يألفها الذوق كالانقلاب الاسلوبي والانحرافات التركيبية والارتقاء النشوئي والمثالية الأخلاقية والحركة التنبيهية والسببية العلمية والتقليد الشكي والشك التقليدي (للمعنى الواحد) والأطوار الانقلابية والمستكشفات التشريحية والعضويات الحفرية ، الى كثير من أمثالها في حين ان كتاب العرب في صدر الاسلام كانوا يعدلون حتى عن المستساغ من هذه الالفاظ الى استعمال المضاف والمضاف اليه فيقولون مثلاً انقلاب الاسلوب وانحراف التركيب الخ .

٢ — ألفاظ لم ترد في كتب اللغة بتاتاً او بالمعنى الذي يريده كالاستعاق والاستكشاف (بمعنى الإكتشاف) والتمفن والارتكاز والإستحواذ والإدحاض وموضوعية العلم والاحتراز والأسبقية والتحلت .

٣ — أفعال عداها بغير الحروف التي تتعدى بها مثل أثّر على وهو يتعدى بحرف في . وباع على (صفحة ٤٤) وهو يتعدى بنفسه او بحرف من . وتأمل من وهو يتعدى بنفسه او بحرف في . وبحث الموضوع بدلاً من بحث عن الموضوع اوفيه . وأهل بالباحثين الى معرفة كذا بدلاً من اهلهم لمعرفة كذا . واضطر للعمل بدلاً من اضطر الى العمل .

٤ — مسميات علمية لم يترجمها باسماء عربية سليمة او بالالفاظ التي اتفق كتاب العرب عليها فقال القمع بدلاً من الطلع او غبار الطلع . والاستجمانة بدلاً من المهبل او المتك او السمة . والحفريات بدلاً من المتحجرات (Fossiles) . والنوع بدلاً من الصنف (Variété) والصفة النافرة (Caractère dominant) عوضاً عن الصفة السائدة او البارزة (وان اتى فعل نفر بمعنى غلب) . والصفة المنفورة (C. recessif) عوضاً عن الصفة المتنحية او الكامنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ — غلطات شتى لا تغتفر وهي كثيرة مثل ليس سوى جسم (ذو) تركيب، ينكرون للعالم الخارجي (وجود حقيقي) في ذاته، لم يجعل لأثر الحالات الخارجية (شأن) يذكر، لا (يؤبهون) بالبراهين، مر على تاريخ الارض (عصوراً) ليقام له بين عشية وضحاها (تمثالاً).

والخلاصة ان كتاب الاستاذ اسماعيل مظهر بك على مافيه مما يؤخذ به هو من أنفع الكتب الفلسفية . ولا أشك ان المؤلف الفاضل اذا تعاهد لغة مؤلفاته بعنايته واستقر على اتباع فلسفة بعينها فانه يخدم العربية خدمة كبيرة عن طريق الفلسفة لغزارة مادته فيها .

عضو المجمع العلمي العربي

مصطفى الشهابي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net